الجذور التاريخية للدبلوماسية العربية الإسلامية
((عصر ما قبل الإسلام وحتى العهد الأموي))

د/ سفيان عثمان المقرمي ❖

المقدمة:

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أكرم مرسل واطهر منسل .وبعد:

يعد موضوع الدبلوماسية من الموضوعات الحيوية والساخنة ، ولا سيما في هذا العصر ، غير أنها ورغم تعاظم أهميتها فأنها ترجع في نشأتها إلى عهود مبكرة من حياة البشرية، وتحديداً إلى عهد الإمبراطورية المصرية القديمة[1] .

بيدَ أن الدبلوماسية قد مثلت متغيراً سياسياً أكثر حضوراً وتجلياً في السياسة الدولية المعاصرة ، لا سيما في زمن العولمة الذي يشهد اليوم تنامياً ملحوظاً لهذا الموضوع ، وحضوراً واضحاً في مختلف المحافل الدولية ذات العلاقة بالمتغير السياسي، وذلك لما لهذا العصر من العلاقات الدولية بالغة التعقيد والتداخل ، والذي يعد في بعض الأوجه أحد إفرازات ظاهرة العولمة التي أعطت لهذا الموضوع بمؤسساته المختلفة ومستوياته المتعددة أهمية بالغة .

وفي الوقت الذي يرى البعض أن الدبلوماسية غاية في التعقيد كونها لا تقتصر على محض تسليم رسالة أو إرسال مبعوث فحسب ، بل تتجاوز ذلك إلى عدة فعاليات تعتمد منهجاً يقوم على أطر فكرية وإجرائية لها من الأسس والمقومات ما يجعلها منظومة متكاملة يصعب فهمها فهماً سطحياً ، في حين نجد فريقاً آخر يأخذها باعتبارها نوعاً من الأداء الذي يعكس الفعل السياسي في أبسط مستوياته ماثلاً في

❖ أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد كلية الآداب – جامعة إب

1 - ترجع الدبلوماسية في نشأتها الأولى إلى عهد الأسرة ((الثامنة عشرة)) التي تكونت على أثر طرد الهكسوس من مصر وملاحقتهم إلى فلسطين وسوريا إثر اكتشاف سجلات رسمية عرفت باسم ((رسائل العمرانة)) التي عدها الباحثون هي الأولى من نوعها في تاريخ العلاقات الدولية .

ينظر: طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ١٩٥٦م، ج ٢ ، ص ٦٨ .

عملية تمتين الصلات ذات الأبعاد السياسية المتقاطعة ، والتي قد لا تتجاوز الفعل السياسي العفوي في أبسط صورة بعيداً عن التنظير والتأطير.

وأيا كانت النظرة لهذا الموضوع غير أنه يعد موضوعاً حيوياً جديراً بالدراسة والتقصي التاريخي ، لبيان الأسس والمرتكزات التي بني عليها هذا الموضوع ، والذي كان للعرب والمسلمين دوراً فاعلاً في بلورته وإرسائه على أسسه المعروفة في عصرنا الراهن ، والتي لها من الأغراض المتعددة الظاهرية منها والضمنية ، الظاهرية من مثل : ما كانت تقوم به العرب حين توفد رسلها من وجهائها ورؤسائها لغرض تقديم التهاني ، أو التعازي ، أو عقد الصلح والمحالفات ، أو إرسال الهدايا ، أو توطيد أواصر العلاقة بالمصاهرة والزواج وغيرها من أمور تستوجبها سياسة الدول والمجتمعات .

أما الضمنية (الخفية) الذي لم يعد يقتصر على ما ذكر آنفاً بل تعدى ذلك إلى عدة فعاليات دبلوماسية تتناسب ومعطيات الحياة المعاصرة من مثل : صياغة النظريات ، ووضع الخطط ، ومعرفة الطرق والمسالك التي يمكن أن تمر بها الجيوش ومعرفة الأماكن التي تكون استراتيجية أكثر من غيرها ، ومعرفة الجيش وعدته وعدده وخططه الدفاعية والهجومية ، ومعرفة كيف يعيش رئيس البلد الذي يوفد إليه الدبلوماسي – المبعوث – وأنماط علاقاته وعاداته و أخلاقة ونقاط الضعف والقوة فيه، وما سواها من الأغراض الخفية للسفارات ، وهو ما تسعى هذه الدراسة إلى إبرازه – في المدة موضوع الدراسة – عبر رحلة تاريخية تقوم على رؤية تحليلية نقدية لهذا الموضوع بأبعاده المختلفة لبيان إسهامات العرب المسلمين في تأصيل هذا الموضوع الحيوي الذي له من الحضور ما يدفع الباحثين إلى استلهام خلفيته التاريخية للإسهام في إبراز قيمته التاريخية ومنزلته الحضارية من حياة البشرية .

ورغم ما يكتنف هذا الموضوع من عقبات ، تأتي في طليعتها ندرة المصادر وصعوبة استقصاء الحديث عنها ، ولكنني – بعد التوكل على الله – عدت إلى المصادر التاريخية استنطقها ، وأتصيد النصوص من بين ثنايا سطورها ، و كانت حصيلة ذلك المجهود هذه الدراسة التي آمل أن تكون ذات فائدة لتأصيل النظام الدبلوماسي العربي الإسلامي .

وتوزعت هذه الدراسة على المحاور الثلاثة الآتية:-

تحدث المحور الأول منها عن السفارات عند العرب قبل الإسلام ، بينما جاء المحور الثاني عن السفارات في العهد النبوي الشريف ، في حين خصص المحور الثالث للعهدين الراشدي والأموي.

معنى الدبلوماسية :

عرفت الدبلوماسية في المعاجم والقواميس السياسية بأنها : الأسلوب الذي يدير به السفير أو المبعوث العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات ، كما تطلق على عمل الرجل الدبلوماسي أو فنه أو المهارة والبراعة في التعامل مع الآخرين.[٢]

وتقوم الدبلوماسية على المرتكزات الآتية:

الرسل ، السفراء ، المبعوثين ، الوفود ، وهي التي تعد مسئولة إلى حد كبير عن تحديد طبيعة العلاقات التي تسود الدول والجماعات والأفراد .

الرسل : ومفردها رسول وهو الذي يرسل في رسالة [٣] ، والرسول هو الذي يرسله الملوك سفيراً بينهم[٤].

أما السفير : فهو الرسول المصلح بين القوم ، والجمع سفراء ، وقد سفر بينهم بسفرٍ وسفارة أي أصلح[٥] ، وقصد بها الملائكة الكرام الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسله في قوله تعالى ((بأيدي سفرة كرام بررة)) [٦].

والبررة هم المبرءون من العيوب كما سيأتي في مواصفات السفير ، وتأتي كلمة موفود ومبعوث بنفس المعنى الذي هو الرسول[٧] .

---

2 - جراندسن وآخرون، كولينز دكشنري، ١٩٧٩م، دار النشر ، جلاسجو. ترجمة د. محمود المقطري. ص ٤٤٥.

3 - الرازي، محمد بن ابي بكر (ت٦٦٠هـ) مختار الصحاح ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٨٣م ، مادة رسل.

4 - ابن الأثير، على بن محمد الجزري(ت ٦٣٠ هـ) اللباب في تهذيب الأنساب ، تحقيق عبد الوهاب النجار ، القاهرة، ١٣٥٧ هـ، ج١ ، ص ٤٦٧.

5 - ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، (ت٧١٠ هـ) لسان العرب ، بيروت د.ت ، مادة سفر.

6 - سورة عبس، آية ١٥ : ١٦ .

7 - مختار الصحاح ، مصدر سابق ، مادة سفر.

وهكذا يتوافق معنى السفير في اللغة العربية الفصحى مع معناه في المصطلحات السياسية الحديثة المعتمدة في القانون الدولي ، كما أن معناه قديماً يشابه معناه حديثاً، كما جاء في المعاجم العربية القديمة والحديثة .[8]

مواصفات السفير أو المبعوث :

لما كان السفير أو المبعوث أو الرسول يمثل الدولة ، فهو يتكلم باسمها ، ويبرم المعاهدات والاتفاقيات نيابة عنها ، لذا أصبح من الضروري وضع مواصفات حضارية وسياسية لمن يصلح للسفارة تتناسب وأهمية هذا المنصب .

وتشير المصادر إلى مواصفات السفراء ، وما يجب أن يتحلوا به من خصائص ومميزات تؤهلهم – دون غيرهم – للقيام بمهام معينة ، و نستخلص من هذه المصادر ، بعض المواصفات بإيجاز والتي من أهمها :

١. الوقار وثبات العقل : ويشمل ثبات العقل التجربة الغنية والمعرفة بالتقاليد المرعية ، كما يشمل أيضا المعرفة بلغة القوم الذين يذهب سفيراً بين ظهرانيهم ، ويشمل أيضاً حدة الذكاء وإلمام السفير بقسط من علوم عصره ، ولقد كان السفراء في الحقبة موضوع الدراسة ملمين ببعض الفرائض والسنن والأحكام وغيرها [9] ، وقد اختار النبي (ص) سفراءه من صفوة صحابته في العلم ، إن لم يكونوا صفوة صفوتهم.[10]

٢. الصبر : وهو الحبس والتجلد وحسن الاحتمال ، وما أعطي أحد " عَطاءاً خيراً له وأوسع من الصبر [11] ، وهي صفة مهمة على السفير أن يتحلى بها، لأن مهمة السفير ليست باليسيرة وتتطلب منه الصبر في المواقف التي ينبغي له أن لا يفرط فيها بحقوق من يقوم بتمثيله ، وقد يوضع في إطار وضعيات حرجة ، أو

---

8 - القاسمي، ظافر، الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٢ ، ص ٤٤٦ ؛ خطاب ، محمود شيت ، السفارات النبوية ، بغداد ، ١٩٨٩م، ص ٩.

9 - ابن الفراء، الحسين بن محمد ، رسل الملك ومن يصلح للرسالة و السفارة . تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ١٠ :١٢

10 - خطاب ، مصدر سابق ، ٣٣١ .

11 - النووي ، محي الدين (ت٦٧٤هـ) رياض الصالحين ، ط٣ ، مكة المكرمة ، ١٣٩٨ هـ، ص٢٩.

يتعرض لاستفزازات مقصودة ، وهنا يتطلب منه أن تكون ردود فعله موزونة ، وتتحلى بالصبر والتروي.[١٢]

٣. أن يكون ذو خلق كريم ، وخلقة مقبولة : وقد حرص النبي (ص)على اختيار سفرائه من بين أصحابه الذين تتوافر فيهم صفات شكلية جميلة ❖ ، إلى جانب سماتهم النفسية والعقلية ، وهذا لا يتناقض ومبادئ الإسلام في المساواة بين الناس واشتراط سمة المظهر، لأن الأمر هنا يتعلق بالأوضاع الوظيفية ومقتضياتها ، وبالقاعدة الإدارية التي ترى ضرورة وضع الرجل المناسب في المكان المناسب . كما يستحب في السفير أن يكون وسيماً قسيماً، تمام القد ، عبالة الجسم، حتى لا يكون قميئاً، وإن كان المرء بأصغريه ومخبوءاً تحت لسانه ، ولكن الصورة تسبق اللسان ، والجثمان يستر الجنان[١٣] . إن مظهر المرء يؤثر فيمن يراه من الناس ، فإن كان مظهره مقبولاً كان بداية طيبة لتقبل ما يعرض ولتحقيق ما يستهدف ، أما إذا كان مظهره غير ذلك فقد يكون بداية الإخفاق ، وصدق رسول الله (ص)بقوله : ((إذا أبردتم إلي بريداً فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم))[١٤] .

٤. أن يكون كريم المحتد ومن ذوي الأقدار والأحساب : لأن في الحسب الأصيل حصانة من الزلل الشخصي ، ولأن من تربى في الأسر الكريمة يقدر الأمور حق قدرها ، ويتخذ لكل نوع من التحدي ما يليق به من استجابة.

٥. الأمانة والصدق والشجاعة ؛ وهي صفات متلازمة فينقل رسالته بأمانة وصدق ولا يقع نهباً للتردد ، بمعنى أن يكون جريئا وشجاعاً في الحوار وفي نقل الأفكار

---

12 - ابن الفراء ، مصدر سابق ، ص ١١: ١٢ .

❖- مثلاً: دحية بن خليفة الكلبي كان من الوسامة وجمال الوجه بحيث أن جبريل عليه السلام كان يأتي محمد (ص)على صورته . ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري (ت ٢٤٠هـ) الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠م ، ج٤ ، ص ١٨٨.

13 - ابن الفراء ، مصدر سابق ، ص ١٥: ٣٤ .

14 - المناوي ، عبد الرءوف، مختصر شرح الجامع الصحيح ، بيروت ، ج١، ص ٢٣.

وجاء في كتاب شرح السير الكبير [١٥] : الواجب على المرسل أن يختار لرسالته الأمين دون الخائن ، والصادق دون الكاذب .

٦. الفصاحة : كان عرب شبه الجزيرة العربية على عهد الرسول (ص)معروفين بالفصاحة وكان سفراؤه كلهم بدون استثناء من عرب شبه الجزيرة العربية[١٦].

وليس شرطاً أن تكون هذه المواصفات بالكيفية التي سلسلت فيها أعلاه، وإنما هناك مرونة في تغليب بعض المميزات على بعض بحسب ما تقتضيه طبيعة المهمة كما بينت كتب التاريخ .

السفارات عند العرب قبل الإسلام :

من الطبيعي أن تقوم السفارة عقب وجود الجماعات المنظمة أو شبه المنظمة لأن تشابك المصالح بين الأقوام المتجاورة لابد لها من سفير يحل معضلاتها ويتنقل بين قوم وقوم لنقل وجهات النظر في حال الاختلاف [١٧].

لقد عرف العرب نظام السفارة بينهم وبين غيرهم من القبائل والأمم والشعوب والدول المجاورة لهم ، وكان من الطبيعي أن تكثر الوفادات والسفارات في تاريخ العرب قبل الإسلام للخروج من عزلتهم في شبه الجزيرة العربية ، ولتبادل المصالح مع جيرانهم ، فضلا عن حاجتهم إلى كسب الأنصار في المعارك الناشئة بين القبائل، أو لوضع حد للقتال الدائر بينهم، فحققت السفارات أغراضها في السلم والحرب تارة، ولم تحققها تارة أخرى .

ومما ساعد على ازدهار السفارات العربية قبل الإسلام ، ودخول العرب في علاقات ودية مع جيرانهم ، الموقع السوقي الاستراتيجي (STRATEGE) لشبه الجزيرة العربية بحكم متاخمتها مراكز الحضارات القديمة في العالم [١٨].

---

15 - الشيباني ، محمد بن الحسن ، شرح السير الكبير ، القاهرة ، د. ت. ج٢، ص ٤٧١.

16 - خطاب ، مصدر سابق ، ٣٢٥ .

17 - القاسمي ، مصدر سابق ، ٤٤٦، ٤٤٧.

18 - غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٦٩، ص ١٢ .

وكانت أكثر الدول صلة بالعرب دولتا الفرس والروم اللتان كانتا أكبر قوتين سياسيتين عسكريتين في العالم حينذاك ، لذلك توالت السفارات بين حكام هاتين الدولتين وبين القبائل العربية وسلطات العرب المحلية لعقد الاتفاقات والمحالفات المختلفة [١٩] .

وكانت وحدة اللغة باعثاً على توثيق صلة العرب ببعضهم بحكم مركزهم التجاري المتميز بين الممالك والبلاد الأخرى شرقاً وغرباً وشمالاً والذي كان باعثاً على الاتصال المباشر وقيام العلاقات الودية بين العرب من جهة والأمم الأخرى من جهة ثانية [٢٠] .

فقد كانت شبه الجزيرة العربية في هذه الأثناء ممراً للقوافل التجارية التي كانت تجتازها من عدة طرق ، أهمها طريقان حيويان أساسيان :

أولهما الطريق الشرقي الذي يتاخم الخليج العربي ماراً بنهر دجلة مخترقاً بادية الشام إلى فلسطين . والثاني الطريق الغربي الذي يمر بمحاذاة البحر الأحمر [٢١] . وعن هاتين الطريقين كانت تنقل صادرات الغرب إلى الشرق وصادرات الشرق إلى الغرب ، واقتضت هذه الحالة الدخول في محادثات لعقد الاتفاقات بين العرب وغيرهم من الأمم ذوات الاستفادة من هذه الحركة التجارية ، مما أتاح لسكان شبه الجزيرة العربية تحقيق مكانة تجارية متميزة في العالم المعروف يومئذ ، ولا غرابة أن تحفل كتب التاريخ بأخبار سفراء العرب إلى الملوك ومفاوضاتهم [٢٢] وأخبار سفارات الملوك إلى العرب تخطب ودهم وترجو معاونتهم ، كما تطرقت هذه المصادر – ولو عرضاً – إلى مواصفات هؤلاء السفراء وما امتازوا به من خصائص أهلتهم للقيام بتلك المهام دون غيرهم [٢٣] وإلى جانب العلاقات التجارية الخارجية

---

19 - حسين الحاج حسن ، حضارة العرب في عصر الجاهلية ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ١٩٠ .

20 - خطاب ، السفارات ، مصدر سابق ، ص ١١ .

21 - جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ، ج ١ ، ص٢٢ ؛ اليعقوبي ، نجيب محمد ، تاريخ الشعر العربي حتى القرن الرابع الهجري ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ١٣ : ١٤ .

22 ، جواد علي ، مصدر سابق ، ج١،ص٢٦ ؛ خطاب ، السفارات ، مصدر سابق ، ص ١١ : ١٢ .

23 - حسن فتح الباب ، مقومات السفراء في الإسلام ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ ، ص ١٦ : ١٧ .

بين العرب وبين سكان البلاد المجاورة كان هناك علاقات مماثلة بين العرب بعضهم البعض داخل شبه الجزيرة العربية عبر الشريان التجاري الذي كان يصل بين اليمن جنوبا ومكة شمالاً ، ومع بلاد الشام كما وردت الإشارة إليه برحلة الشتاء والصيف المعروفة ((بالإيلاف))[٢٤] .

ولست استبعد أن تكون رحلة الشتاء والصيف هذه والتي كان يقوم بها رجال ''من قريش قبل الإسلام قد حملت شيئا من العلاقات الدولية ولم تقم على التجارة فحسب.

ومن أشهر هذه السفارات ما كان لغرض التجارة ، وعقد المعاهدات ((الإيلاف)) ما قام به هاشم بن عبد مناف المشهور بالذبائح وعمل الثريد حتى عرف ((بهاشم الثريد)) حين قام بسفرة إلى بلاد الشام وتحديداً إلى مركزيها المشهورين حينها غزة وبصرى ، وعقد مع العشائر في طريق التجارة الأحلاف نظير أن تمر قافلته بسلام ، ومات هناك ولم ير ابنه عبد المطلب جد الرسول (ص). ورحلة المطلب إلى بلاد اليمن ولقائه بتبع بن حسان بن تبع وأخذ منه العهد،

ومات في اليمن في ردمان ❖ . ورحلة نوفل إلى بلاد العراق لنفس الغرض ومات في العراق❖❖ ، ورحلة عبد شمس إلى الحبشة للغرض ذاته، وهذا الوحيد الذي عاد إلى مكة، أما البقية فماتوا كلٌ في المنطقة التي ذهب إليها [٢٥].

وعرفت من سفارات قريش قبل الإسلام أيضاً سفارة عبد المطلب بن هاشم وخويلد ابن أسد بن عبد العزى ، و جد أمية بن أبي الصلت إلى معد يكرب ضمن الوفود التي جاءت إلى اليمن للتهنئة بالملك بعد انتصاره على الأحباش ، وألقى خطبته المشهورة التي منها:

---

24 ابن هشام ، عبد الملك ، (ت ٢١٨هـ) السيرة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٧١، ج١ ، ص ٤٢
❖ تقع حالياً شمال غرب صنعاء في منطقة الحيمة الداخلية ، المقحفي ، إبراهيم أحمد ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، دار الكلمة ، صنعاء ، ١٩٨٨م، ص ٢٦٦.
❖❖ في موضع سلمان بك حالياً.

25 - حسين الداقوقي ، محاضرات في علاقات الخلافة بدول المشرق . د. ت.

((أن الله جل جلاله قد أحلك أيها الملك – محلاً رفيعاً، صعباً منيعاً، شامخاً، باذخاً، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، في أكرم معدن ، وأطيب موطن ، فأنت – أبيت اللعن – رأس العرب ، وربيعها الذي تخصب به وأنت – أيها الملك – ذروة العرب الذي له تنقاد .....إلى أن يقول : فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة [٢٦])) وأن هذه الخطبة توحي بوجود أعراف دبلوماسية من خلال مجيء الوفود من أنحاء شبه الجزيرة العربية إلى اليمن .

كما كانت قريش ترسل مبعوثيها أو سفرائها إلى غيرها من القبائل لشتى الأغراض ، ومن سفرائهم المشهورين بني عدي ، ومنهم الخطاب أبو عمر الفاروق رضي الله عنه .

وأن عمر رضي الله عنه مارس السفارة قبل الإسلام وبعده ، قال عنه ابن حجر: وكان إليه السفارة في الجاهلية))[٢٧] ❖ .

ومن الذين مثلوا قبيلة قريش في عدة مواقف أبو سفيان صخر بن حرب❖❖ الذي كان زعيما في قريش وممثلاً عنها ، ومن مواقفه الدبلوماسية التي مثل فيها

---

26 - المسعودي ، أبو الحسن (ت ٣٤٥ هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة الرياض الطبعة الخامسة ، ١٩٧٣م، ج ٢ ، ص ٨٣: ٨٤.

27 - ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق البجاوي ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ؛ محمد حسنين هيكل ، الفاروق عمر ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٣٣.

❖ وعمر بن الخطاب أشهر من أن يعرف ، فهو الذي كان إسلامه فتحاً على المسلمين وفرجاً لهم من الضيق، فما عبد المسلمون الله علانية حتى أسلم لشجاعته ، وهو الذي قال فيه رسول الله (ص): اللهم اعز الإسلام بأحب الرجلين إليك ، بعمر بن الخطاب ، أو بأبي جهل بن هشام ، وكان أحبهما إلى الله عمر . وذكر مترجموه أن من صفاته الجسمية انه كان جسيما قد فرع الناس كأنه على دابة ، وقيل عنه بأنه أروع كأنه راكب والناس يمشون ، وكان أبيض اللون ، فلما كان عام الرمادة وهو عام المجاعة تغير لونه فأصبح شاحباً ،وكان يشب على فرسه كأنه خلق على ظهره . وهو ثاني الخلفاء الراشدين ، وطبقت شهرة عدله الأفاق ، لذلك فإن اختياره سفيراً كان يستند على أسس راسخة ولم يكن اختياره اعتباطياً أو مبتسراً.

❖❖ هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي،اسلم في عام الفتح ٨سنةهـ، بعد أن قاد المشركين في معركة احد سنة ٣هـ والخندق سنة ٥هـ ، ثم شهد معركة حنين ومعركة الطائف مع المسلمين ، استعمله الرسول (ص)على نجران ، ووجهه (ص)لهدم الصنم ((مناة))، وتزوج الرسول ابنته أم حبيبة رضي الله عنها، فقد عينه اليمنى يوم الطائف وفقئت عينه الأخرى في معركة اليرموك سنة ١٣ هـ . ينظر ترجمته في الإصابة، مصدر سابق ، ق ٣ ، ص٤١٢:٤١٣.

قبيلة قريش حينما نقضت قريش عهدها مع الرسول (ص)وحاربت قبيلة خزاعة حليفة المسلمين ،فذهب يفاوض الرسول (ص)لتجديد الصلح المعروف بصلح الحديبية سنة ستة هجرية فأظهر جلداً وصلابة وصبراً وحزماً لإنجاز مهمته . وقد عرف عنه الدهاء و صلابة الموقف .[٢٨]

وعرف أيضاً من سفارات قريش قبل الإسلام سفارتا عمرو بن العاص ❖ إلى النجاشي ملك الحبشة، الأولى في السنة الخامسة من البعثة لرد المسلمين الذين هاجروا من مكة إلى الحبشة ، والثانية في السنة السادسة من الهجرة إلى نجاشي الحبشة أيضاً لرد المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة إلى مكة ، وقد أخفق عمرو في هاتين السفارتين إخفاقاً كاملاً رغم أن قريش ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي برجلين جلدين هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة مصحوبين بالهدايا مما يستظرف من متاع مكة وخاصة ((الأدم)) للنجاشي وبطارقته ، واستعمل عمرو ابن العاص دهاءه المعروف من أجل أن يوافق النجاشي على رد المسلمين المهاجرين فلم يفلح أمام حجج المسلمين وفصاحة جعفر أبن أبي طالب وشجاعته في مناقشة عمرو بن العاص ، وعرضه تعاليم الإسلام عرضاً موضوعياً شيقاً أقنع به النجاشي مما حدى به إلى القول لعمرو : والله لا أسلمهم إليكما [٢٩].

---

28 - ابن هشام ، السيرة ، ج٤، ص ٨٦ وما يليها .

❖ هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي ، اسلم قبل فتح مكة في صفر سنة ٨ هـ وقيل بين الحديبية وخيبر ، وذكر مترجموه أن إسلامه كان على يد النجاشي وهو بأرض الحبشة (ابن سعد . مصدر سابق ، ج ١ ، ١٩٨) عندما أوفد مبعوثاً من قريش إلى النجاشي لتعكير صفو الجو الذي نعم به المسلمون الذين هاجروا من مكة إلى الحبشة ، وأقسم على أن يستقلن لجعفر وأصحابه (ابن حجر، مصدر سابق ، ق٤ ، ٦٥١ : ٦٥٢) وبعد إسلامه – رضي الله عنه – قربه النبي (ص)– وأدناه منه ، وولاه على الجيش الإسلامي في غزوة ذات السلاسل وأمده بأبي بكر وعمر وأبي عبيده بن الجراح ، ثم استعمله على عمان ، و مات (ص) وهو أميرها ، ثم كان في عهد عمر من أمراء الجيش الإسلامي في الشام، وهو الذي فتح قنسرين ، وصالح أهل حلب ومنبج وانطاكية ، وولاه عمر على فلسطين ، ثم على مصر، وقال عنه :((ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميراً...))ووصفه الشعبي انه من دهاة العرب ويصلح للمعضلات ، ووصف بأنه من صالحي قريش توفي عام ٤٣ هـ . ينظر ترجمته في : ابن سعد ، مصدر سابق ، ج ١، ص ١٩٨ وما بعدها ؛ ابن حجر ، الإصابة ، مصدر سابق ، ق ٤ ، ص ٦٥٢ ؛ ابن هشام ، السيرة ، ج١ ، ص ٢٢٥.

❖❖ وهو الجلد المدبوغ.

29 - ابن هشام ، السيرة ، مصدر سابق ، ج ١، ص ٢٢٤ : ٢٢٥ .

فقال عمرو : والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم ، فجاء بما يستثير النجاشي ، وأدعى أن المسلمين يزعمون أن عيسى بن مريم عليه السلام عبد'' ، وأنهم يقولون فيه قولاً عظيماً ، ولما استوضح النجاشي من المسلمين ، وعرف عقيدتهم في عيسى ابن مريم عليه السلام رد عمراً وصاحبه خائبين[30] .

ويعد سهيل بن عمرو العامري❖ خطيب قريش المصقع ، من اشهر مفاوضي قريش وممثليهم في صلح الحديبيه عام ٦هـ ،فقد سجلت كتب السيرة والتاريخ مواقفه العديدة التي مثل بها قبيلة قريش ،وكان نموذجاً للمفاوض الصعب ،أوفدته قريش ممثلاً لها بعد أن أخفق ممثلوا قريش السابقون ❖❖ ،وبعد حوار مع الرسول (ص) وأخذ ورد دعا الرسول (ص) كاتبه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ليكتب كتاب الصلح ،الذي هو أشبة بالبروتوكول في عصرنا، وهو دليل على تكافؤ الطرفين من حيث المكانة والقوة ، كما يحدث في المؤتمرات الدولية في وقتنا الراهن حينما يكتب للمفاوضات النجاح ، ويسجل المتفاوضون النتائج التي توصلوا إليها في وثائق دولية ، والتي تأتي من حيث الأهمية :المعاهدات ، والاتفاقيات، يليها في الأهمية الصك العام ، والتصريح والتسوية ، والبرتوكول ، والاتفاق ، والمذكرات المتبادلة[31] . وأرى هنا إيراد بعض بنود صلح الحديبية لبيان الأسلوب الذي دون فيه هذا الصلح ، والصلاحيات الممنوحة للمفاوضين .

قال النبي (ص) لكاتب الصلح علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن عمرو : لا أعرف هذا ، ولكن

---

30 - ابن هشام ، السيرة ، مصدر سابق ، ج ١، ص ٢٢٤ : ٢٢٥ .

❖ هو سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود القرشي العامري ، اسلم عام الفتح سنة ٨ هـ ، وهو الذي رد على قول النبي (ص)حين خاطب المكيين : ما تظنون أني فاعل'' بكم ؟ قال سهيل بن عمرو : خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت . وكان إسلامه محموداً . وقال في خلافة عمر : والله لا أدع موقفاً وقفته مع المشركين ، إلا وقفت مع المسلمين مثله ، ولا نفقة أنفقتها مع المشركين إلا أنفقت مع المسلمين مثلها ، لعلّ أمري يتلوا بعضه بعضاً، ثم خرج للجهاد ومات في طاعون عمواس بالشام عام ١٨هـ . ابن حجر ، الإصابة ، مصدر سابق ق٣ ، ص ٢١٣.

❖❖ وهم بشر بن سفيان الكعبي ، وبديل بن ورقاء الخزاعي ، ومكرز بن حفص بن الأحنف ، والحليس بن علقمة ، وعروة بن مسعود الثقفي . ينظر ترجمتهم في : ابن هشام ، االسيرة ، ج٢ ، ص ٧٤٤ : ٧٨٠ .

31 - شاكر محمود عبد المنعم، محاضرات في تاريخ الدبلوماسية . معهد التاريخ ، بغداد ، ١٩٩٨م.

أكتب بسمك اللهم ، فقال النبي (ص): أكتب بسمك اللهم فكتبها ، ثم قال : أكتب : هذا ما صالح علية محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن أكتب إسمك وإسم أبيك . فقال النبي (ص) : اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .... وتم الصلح بين الطرفين وفقاً للشروط التي وضعت ، وهي المعروفة في كتب السيرة والتاريخ والتي من أهمها:

- أن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين لمدة عشر سنين ، وأن من أتى محمداً من قريش بغير أذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد (ص)لم يردوه عليهم ، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن يرجع محمد عليه الصلاة والسلام في ذلك العام ولا يدخل مكة ، وأن يدخلها في العام الذي يليه ويقيم بها ثلاثة أيام والسيوف في أغمادها[32] . وشهد على كتاب الصلح شهوداً من المسلمين والمشركين.

ومع أن المسلمين لم يطمئنوا لهذه الشروط وعدوها تنازلاً في حقهم ، وصرح بذلك عمر رضي الله عنه بقوله : مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم: ألسنا على حق ؟ قال النبي (ص): بلى . فقال عمر: أوليسوا على باطل؟ فقال (ص): بلى، فقال عمر : لِمَ نعط الدنية في ديننا ... الخ . إلا إن القرآن وصف هذا الصلح بأنه الفتح المبين [33].

ونلاحظ من هذا النموذج في المفاوضات أن الصلاحيات منحت لممثل قريش في هذا الصلح على غرار ما يتم في وقتنا الحاضر حينما تعهد مهمة التفاوض إلى الوزراء أو الممثلين الدبلوماسيين أو المبعوثين .، كما منح سهيل بن عمرو صلاحيات كاملة تخوله التوقيع على الاتفاقية بالأحرف الأولى، ومن ثم تأتي المصادقة على الاتفاقية لاحقاً.

---

32 - ابن هشام ، السيرة ، ج٣، ص ٧٨٢ .

33 - في قوله تعالى : ((إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) سورة ، الفتح ، آية ١.

السفارات في عصر النبوة:

لما بعث الله محمد (ص)نبياً ورسولاً للناس أجمعين ، واختاره من قريش ، كان من الطبيعي أن يقوم بسلسلة من الأعمال المهمة ، وخاصةً بعد هجرته (ص)، من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، وهي مرحلة بناء الدولة الإسلامية ، والتي من أهم أسسها: بناء المسجد و عقد المؤاخاة بين المسلمين ❖ ، ثم إعداد الوثيقة "أو الدستور" التي نظم بها فئات المجتمع الجديد في المدينة ، والتي حدد من خلالها نوع العلاقات التي ينبغي أن تسود فئات المجتمع الجديد، مجتمع المدينة، وأعطت هذه الوثيقة القيمة الدستورية لحكومة الرسول (ص)في المدينة المنورة.

ولا يعني هذا أن الفترة المكية من حياة الرسول (ص)بعد البعثة والتي دامت ثلاث عشرة سنة قد خلت من أي عمل ديني سياسي ، ولا أدل على ذلك من انه (ص)كان يعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج ، وكذا حينما ذهب إلى الطائف خارج مكة في رحلته المشهورة بغض النظر عن تحقيق النتائج التي كان يروم تحقيقها من رحلته تلك .

ولما هاجر (ص)هجرته المشهورة إلى المدينة ، والتي اتخذها المسلمون مناسبة مهمة للتوقيت والتاريخ للأحداث ، وقعت سفارات كثيرة بينه وبين قريش من جهة ، وبينه وبين القوى الأخرى وبخاصة مع دولتي الفرس والروم اللتين كانتا على تخوم بلاد العرب من جهة ثانيه ، وذلك بغرض إثبات الوجود الإسلامي – بالمصطلح

❖ درج كثير من كتاب السير والتاريخ على أن المؤاخاة التي تمت إنما كانت بين المهاجرين والأنصار فقط على اعتبار أن المهاجرين فقراء والأنصار أغنياء ، وأن هذه المؤاخاة إنما كانت لغرض مادي اقتصادي بحت ، ولكن الدلائل تشير إلى أن المؤاخاة كانت بين مهاجري ومهاجري ، وأنصاري وأنصاري ، والنماذج لهذا القول كثيرة ومنها : أنه (ص)آخى بينه وهو سيد البشر وابن عمه علي ابن أبي طالب وكلاهما مهاجر ، وبين عمه حمزة بن عبد المطلب وبين مولاه زيد بن حارثه وكلاهما مهاجر، وبين الزبير بن العوام وبين عبد الله بن مسعود وكلاهما مهاجر ، وبين جعفر ابن أبي طالب ومعاذ بن جبل وجعفر غائب في الحبشة ، وبين بلال بن رباح وعبد الله الخثعمي وكلاهما مهاجر، وكذلك كانت بين أنصاري وأنصاري ، ثم لو كان الغرض اقتصادي صرف لآخى (ص)بين فقراء المهاجرين وأغنياء الأنصار ، ولكن هذا لم يحدث . وهذا ما جعل المستشرقين يعتمدون على هذا في تفسير أحداث التاريخ في هذه المرحلة ويستنتجون أن المادة هي رائدة لكل موقف من مواقف المسلمين : ينظر : محمود شاكر ، مصدر سابق ، ج٢، ص ١٦٣.

الحديث – ولجعل هذه القوة تعترف بالوضع الجديد ، وهذا يشبه ما يحصل في هذه الأيام عندما تتسلم فئة ما الحكم في بلاد فإنها تسعى إلى إثبات وجودها حتى تعترف بها بقية الدول[٣٤]. وفي العام السادس الهجري تم عقد صلح الحديبية المشهور بين المسلمين وقريش ، وحددت فيه أهم البنود المذكورة آنفاً ، حينئذٍ فكر (ص)بإرسال الرسل مصحوبين برسائل إلى اشهر ملوك العالم في زمنه بهدف توثيق العلاقات الدبلوماسية معهم ، ونشر الدعوة الإسلامية في دولهم كونه (ص)أُرسل إلى الناس أجمعين ، وتوكيداً على أن رسالته (ص)عالميه وليست إقليميه أو عنصريه مصداقاً لقوله تعالى " .وما أرسلنك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً "[٣٥] . وتجمع اغلب كتب السيرة والتاريخ على أن هذه المراسلات بدأت في شهر ذي الحجة من العام ٦ هـ ، الموافق ٦٢٧م .

وفيها أ رسل الرسول (ص)كما يروي الطبري [٣٦] ستة رسل وهم :

١- حاطب بن أبي بلتعه – من لخم – حليف بني أسد بن عبد العزى إلى المقوقس صاحب الإسكندرية.[٣٧]

٢- شجاع بن وهب – من بني أسد بن خزيمة – إلى الحارث بن أبي شمر الغساني[٣٨].

٣- دحيه بن خليفة الكلبي إلى قيصر الروم[٣٩].

٤- سليط بن عمرو بن لؤي إلى هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة[٤٠].

٥- عبد الله بن حذافه السهمي إلى كسرى[٤١].

٦- عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة[٤٢].

---

34 - محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٥م، ط ٣ ، ج ٢ ، ص ١٧٦.

35- سورة سبأ ، آية ٢٨ .

36- الطبري ، محمد بن جرير الطبري ، (ت٣١٠هـ) تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ، د.ت، ج ٢ ، ص٦٤٤.

37 - الطبري ، مصدر سابق ، ص٦٤٤.

38- ابن سعد ، الطبقات ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٢٠٠.

39 - ابن سعد ، الطبقات ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ١٩٩ ؛ ج٤ ، ص ١٨٨.

40- ابن سعد ، الطبقات ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٢٠١ ؛ ج٤ ، ص ١٥٧.

41 - ابن سعد ، الطبقات ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ١٩٩ ؛ ج٤ ، ص ١٤٣.

42 - ابن سعد ، الطبقات ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ١٩٨.

وزاد ابن هشام [43] على هؤلاء الستة : العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى[44] أخي بني عبد القيس صاحب البحرين، و عمرو بن العاص إلى جيفر بن الجُلندي وعباد بن الجلندي الأزديين صاحبي عمان [45] ، كما بعث المهاجر بن أبي أميه إلى ذي الكلاع الحميري ملك اليمن [46] .

وكانت فحوى هذه الرسائل لا تختلف عما يحمله المبعوثون الدبلوماسيون في وقتنا الحاضر، غير أن أسلوبها وصياغتها ومحتواها تعبر عن مرحلتها الزمنية وعن أهدافها الأساسية في نشر الدعوة الإسلامية بالحكمة والموعظة الحسنة.

وحينما تناهى إلى ذهن الرسول (ص)أن الملوك لا تقرأ الكتب إلا إذا كانت مختومة ، صاغ خاتماً من فضه ونقش فيه " محمد رسول الله "[47] وختم به رسائله . وتدلنا دراسة هذه الكتب على أن النبي محمد (ص)وهو الأمي علم الناس درساً في أدب المراسلات مع الأجانب – وان خالفوه في المعتقد – وذلك بأن توج هذه الكتب بالألقاب التي كانت أقوامهم تخاطبهم بها ، وليس بالألقاب التي يريدها هو[48] مثل: رسالته إلى النجاشي الأسحم بقوله (ص): ملك الحبشة أو عظيم الحبشة ، وإلى هرقل:عظيم الروم ، والى كسرى : عظيم فارس ، وإلى ملك اليمن وان كان لم يعد من الملك شيئاً في بلاد اليمن في تلك المدة لأنها كانت واقعه تحت النفوذ الفارسي.

كما كان هؤلاء الرسل مؤهلون للقيام بهذه المهمة لدى الحكام أو الأمراء أو الملوك الموفدين بين ظهرانيهم ، وتتضح أهليتهم للقيام بهذه المهمة من خلال دراسة حياتهم وسجاياهم ❖التي سبق أن بيناها في مواصفات السفراء حيث توفرت فيهم

---

43 - ابن هشام ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٦٠٧.

44 - ابن هشام ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٦٠٧

45 - البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر (ت ٢٧٩ هـ) فتوح البلدان ، بيروت ، ص ٨٩ .

46 - ابن سعد ، الطبقات ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٢٠١ ؛ ج٤ ، ص ١٤٦؛١٤٧.

47 - ابن سعد ، الطبقات ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ١٩٨ ؛ البوطي، محمد رمضان ، السيرة، دار الفكر، ١٩٧٥م، ص ٣٧.

48 - محمد حميد الله الحيدر أبادي ، الوثائق السياسية في عصر النبوة والخلافة الراشدة ، بيروت ، لبنان، د.ت ، ص ٤٣ وما بعدها .

❖ كان دحية بن خليفة الكلبي وسيماً قسيماً، وكان جبريل عليه السلام ينزل بالوحي على الرسول (ص)على صورته . ابن سعد ، الطبقات ، ج٤ ، ص ١٨٨.

صفات عقليه وجسمية ملائمة[49]، كما كان (ص)يرسل إلى كل أمير أو ملك رسولاً يليق به ويعرف لغة بلاده ، حيث أن النبي (ص)حث أصحابة على تعلم اللغات كما جاء في حديثه للصحابي الجليل زيد بن ثابت الأنصاري (.تعلم لغة يهود فاني لا آمنهم على كتابي..)، فتعلم – رضي الله عنه – العبرية والحبشية والرومية من أهل هذه اللغات. لأن تعلم لغة ما ليس بالأمر المعجز ، وباستطاعة أي إنسان أن يتعلم أكثر من لغة إذا وجد لديه الاستعداد والمثابرة ، ويغلب عليّ الظن أن هؤلاء الرسل تعلموا لغات الأقوام المرسلين إليهم قبل أن يكلفوا بمهمة إيصال الرسائل إليهم .

وتأتي أهمية إرسال الرسل إلى الملوك والأمراء في القرن السابع الميلادي نظراً لأهميته السياسية ، كون كسرى فارس وهرقل قيصر الروم والنجاشي والمقوقس وغيرهم ، كانوا يسيرون العالم وقتئذ ، وهم البارزون فيه ، ولذلك فإن أهميه هذه الرسائل تزداد إذا علمنا أن هؤلاء الذين خاطبهم النبي (ص)كانوا يمثلون العالم المعروف في زمنهم.

وقد نجحت الدبلوماسية الإسلامية في تحقيق أهدافها إلى حد كبير ، تمثل ذلك في استجابة هؤلاء الملوك والقياصرة والأكاسرة لدعوة النبي (ص)واقتناع كل من هرقل والنجاشي والمقوقس بالدعوة الإسلامية ، وإكرامهم لرسل النبي (ص)، وإهداء المقوقس للرسول (ص)بهدية ، ومنها جاريتان كانت إحداهما ماريه القبطية أم ولده إبراهيم .

أما كسرى فارس فرده معروف من الكتاب وحامله ، وما أوعز فيه إلى عامله على اليمن باذان بإحضار النبي (ص)إليه كونه – في نظره – خاطبه وهو عبد" من عباده . وكان من أمره ما كان حينما مزق الله ملكه استجابة لدعوة النبي (ص) عليه .[50]

وكان (ص) يعلم مبعوثيه أسلوب التعامل مع الملوك والأمراء ، فإذا استجابوا لما يدعون إليه ، يقيم المبعوث بين ظهرانيهم ، حتى يصله أمر النبي (ص) ، وأن لا

49 - انظر المبحث الخاص بمواصفات السفير .

50 - ابن كثير ، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٤٤هـ) البداية والنهاية ، ج٣، ص ٥١٣.

يكتفوا بإيصال الرسائل إلى أصحابها وحسب ، وإنما يوضحون الأغراض التي جاءوا من أجلها كونهم على علم بمضمون الرسائل التي يحملونها ، فهم أشبه بالمبعوثين الدبلوماسيين أو السفراء فوق العادة الذين يمثلون بلدانهم في وقتنا الحاضر ، فكانوا يدخلون في حوار مع الملوك أو الأمراء ، ويبعثون إلى الرسول (ص) برسائل تبيانا لما توصلوا إليه ، وتتواصل الرسائل بينهم وبين الرسول (ص)[٥١]، فهو تمثيل دبلوماسي يعبر عن مرحلته التاريخية وظرفه الزمني.

وفي عام ٩هـ المعروف بعام الوفود [٥٢] ، كان (ص) يستقبل الوفود التي جاءته من مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية ، وينزل كل وفد المنزلة اللائقة به فيشرح لهم دعوة الإسلام ، ويختار منهم من يجد فيه الصفات التي تؤهله للقيام بعمل ما مثل : جمع الصدقات ويطلق عليه ((المصدق)) ، أو من يصلح لأن يكون إماماً يؤم الناس في صلاتهم حينما يرجعون إلى بلدانهم التي وفدوا منها ، وقد يغير أسماء بعضهم مما يلقي ضوءاً على العلاقات الدبلوماسية وأغراضها آنئذ. أما الدبلوماسية في عهد الخلفاء الراشدين (١١ – ٤٠هـ) فكان من الطبيعي أن تزداد أهميتها ، وتتعدد أغراضها ، ويتسع نطاقها بتوسع رقعة الدولة العربية الإسلامية في هذه الحقبة بفعل حركة الفتوحات الإسلامية التي تمت في عهد الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) أجمعين ، وإن كان عهد الخليفة الثاني عمر الفاروق رضي الله عنه ، هو الأكثر تميزاً بالفتوح - في هذه المدة موضوع الدراسة – والتنظيم الإداري والمالي للدولة العربية الإسلامية ، وخاصة بعد تحرير بلاد الشام ومصر والعراق ، ووصول الإسلام إلى بلاد فارس وأسيا الصغرى ، وتحديداً بعد موقعتي القادسية واليرموك ١٤ هـ. ومما لاشك فيه أن توسع الدولة العربية الإسلامية على هذا النحو قد أدى إلى الاحتكاك و التفاعل مع أمم أخرى ، وفي الوقت نفسه حتم إيجاد علاقات دبلوماسية تعددت أغراضها مثل :

51 - ابن هشام ، السيرة، ج٤، ص ١٠؛ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٨٩ : ٩١.

52 - ابن هشام ، السيرة، ج٤، ص ٩٨٥ وما بعدها.

عقد المعاهدات ، تبادل الأسرى ، تنظيم حركة مرور التجارة وما سواها من أمور أخرى . وانتهج الخلفاء الراشدون (رضي الله عنهم) نفس النهج الذي سار عليه الرسول (ص) فيما يتعلق بأمر السفارة مع زعماء الدول المجاورة لهم ، وعلى وجه الخصوص مع الدولة البيزنطية ، لأن دولة الفرس ، قد زالت في عام ١٤ هـ في موقعة القادسية ، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك .

وتذكر بعض المصادر أن عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ٢٣ - ٣٥ هـ ، شهد أول اتصال رسمي بين المسلمين والصينيين أثناء حكم أسرة (تانغ الملكية) التي حكمت الصين حوالي ثلاثة قرون(٦١٨ – ٩٠٧ م) وتحديداً في عهد الإمبراطور (قاو تسنغ) عام ٦٥١م، الموافق ٣١/٣٠هـ . حيث تبادل الطرفان إرسال المبعوثين بينهما لأغراض متعددة[٥٣] . كما تعددت الوفادات الدبلوماسية بينهما[٥٤] ❖ .

وإذا كان من المسلم به أن الدبلوماسية تزدهر بازدهار الحضارة وتنظيم شئون الدولة الإدارية والسياسية ، وتنامي قوة الدولة ، وتزايد المصالح المشتركة فإن دراسة الأدب السياسي والاجتماعي المتعلق بطبيعة (سيكولوجية) الأمم والشعوب، وأنماط حياتها جاء نتيجة طبيعية لحقيقة التعامل بين هذه الأمم والشعوب ، كما أظهرته منهجية إدارة الدولة العربية الإسلامية . وبرزت خصائص معينة لكل امة من الأمم سواء كانوا فرساً أو روماً أو أتراكاً أو هنوداً أو صينيين أو غيرهم انعكست فيما سطره المؤرخون والجغرافيون والرحالة المسلمون من مثل : المقدسي ، وابن خرداذبه والمسعودي ، وما أورده المسعودي في إحدى مصنفاته التاريخية /الجغرافية[٥٥] عن الأمم

---

53 - عبد الرحمن ناجونغ ، مختصر تاريخ العرب في العصور الوسطى ، معهد اللغات ، بكين ، د.ت، ص ١٧٠.

54 - فهمي هويدي ، الإسلام في الصين ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٤٣، ١٩٨١م،ص ٤٢ .

❖ ويذهب فيصل السامر إلى التشكيك في أن الخليفة عثمان أرسل ثلاث بعثات إلى الإمبراطور الصيني (قاو تسنغ) لأن الأعوام الأخيرة من حياة الخليفة عثمان شهدت اضطرابات سياسية ، ولم تشجعه هذه الظروف إلى الاهتمام بالخارج على هذا النحو. ينظر: فيصل السامر ، الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى ؛ فهمي هويدي ، مصدر سابق ، ص ٤٧.

55 - وهو كتاب : التنبيه والإشراف ، طبعة بيروت ، ١٩٦٨م.

السبع في سالف الزمان ، ولغاتهم ، وأمرائهم ، ومواضع مساكنهم وما تميزت به كل أمة عن غيرها وما اتصل بذلك .[٥٦]

فتحدث عن الفرس والسريان (الكلدانيين) واليونان ، والروم ، والصقالبة والإفرنجة والأتراك والهنود والصينيين[٥٧].

وأصبح من الضروري دراسة الأدب الدبلوماسي ، والذي تمثل بانتشار اللغة العربية وآدابها ، والفلسفة العربية ، والحضارة العربية ، وأن هذه العناصر هي التي شكلت بالتالي الفكرة السياسية العربية الإسلامية .

ونخلص إلى القول :

أن التوسع في الدولة العربية الإسلامية بفعل حركة الفتوحات الواسعة التي شهدها عصر الخلفاء الراشدين أدى إلى انضواء أمم وشعوب ذوات نظم وحضارات وأفكار ومعتقدات تحت لوائها، وأفضى إلى بلورة الأدب الدبلوماسي العربي في هذه الحقبة وفي المرحلة التي تليها و تحديداً في العهدين الأموي في الأندلس والعباسي❖ .

السفارات في العهد الأموي:

أما السفارات في العهد الأموي (٤١ – ١٣٢هـ) فقد شهدت وضوحاً في علاقاتها الدبلوماسية أكثر مما كانت عليه في العهدين النبوي و الراشدين ، وذلك بسبب النهج السياسي لحكم بني أمية الذي تغير من حكم شوروي في العهد الراشدي إلى حكم وراثي في العهد الأموي ، فبرز طابعه الدنيوي (السياسي) مِنْ مثل:

العناية بأبهة الخلافة[٥٨] ، اتخاذ الحجاب والحاشية ، والألبسة المطرزة. وأرتفع شأن المبعوثين في هذا العصر ، وأصبح اختيارهم يتم بدقة ، كونهم يمثلون الدولة في الخارج .

---

56 - المسعودي ،التنبيه والإشراف ، مصدر سابق ، ص ٦٧ وما بعدها .

57 - المصدر نفسه ، ص ٧٢:٧٣.

❖ وهذا ما سنفرد له بحثاً مستقلاً في قابل الأيام .

58 - حُمل على معاوية ابن أبي سفيان (رضي الله عنه) أنه قلد الأكاسرة والقياصرة في الأبهة والملك منذ توليه إمرة الشام ، ولعل الأمر يستوجب ذلك ، لما في عادة أهل البلد ، ونظرتهم إلى هيبة السلطان فذكر الطبري ذلك ،

فكان المبعوث هو المتكلم باسمها ، والمفاوض عنها ، يبرم العقود ، ويوقع الاتفاقيات والمعاهدات نيابة عنها ، وهي أمور غاية في الأهمية والخطورة .

ولهذا حرصت الدولة العربية الإسلامية في العهد الأموي على انتقاء واختيار سفرائها أو مبعوثيها ممن يتصفون بالكفاءة والمقدرة ، فإذا تعذر إيجاد شخص يتحلى بالضوابط التي وضعتها ، فحينئذ تلجأ إلى إبتعاث أكثر من شخص يكمل الواحد منهم بمواهبه مواهب الآخر ، على أن يتولى رئاسة البعثة أو السفارة أكثر الأعضاء اتصافاً بتلك الصفات التي سبق وأن أوضحناها آنفاً.

وكان الخليفة معاوية ابن أبي سفيان (ت ٦١ هـ) مؤسس الدولة الأموية ، والياً على بلاد الشام من قبل الخليفة عمر الفاروق وعثمان ابن عفان ((رضي الله عنهما)) وكانت له مراسلات وملاطفات مع هرقل الروم[٥٩] ولاشك أن هذه العلاقات توسعت بعد أن أصبح خليفة سنة ٤١ هـ.

وتذكر المصادر التاريخية ما يشير إلى أن الخليفة الأموي كان هو الذي ينتخب رئيس البعثة بنفسه ، بعد إجراءات سابقة يتولاها موظفون مختصون ، ويجري له اختباراً شاملاً ، ليتأكد من نباهته ولبقاته، وحضور بديهيته ، ومن النماذج على ذلك ما قام به الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (ت٨٦هـ) باختبار المبعوث الذي أوفده عليه واليه على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي (ت٩٥هـ) ، وكان هذا المبعوث هو عامر الشعبي [٦٠] ، الذي كان حافظاً أديباً فقيهاً ، مطلعاً على العلوم الشرعية ، وله إلمام بالتاريخ العربي الإسلامي[٦١] .

إذ قال خرج عمر بن الخطاب إلى الشام ، ومعاوية والياً عليها ، فتلقاه معاوية ، وراح إليه في موكب . فقال له عمر: يا معاوية : تروح في موكب وتغدو في موكب مثله ! وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك ! فقال : يا أمير المؤمنين : إن العدو بها قريب منا ، ولهم عيون وجواسيس فأردت – يا أمير المؤمنين – أن يرو للإسلام عزاً . فقال عمر: أن هذه لمكيدة رجل لبيب ، أو خدعة رجل اريب . ينظر : الطبري ، مصدر سابق ، ج٥ ؛ محمود شاكر ، مصدر سابق ، ج٤، ص ٢٩ .

59 - المسعودي ، التنبية والإشراف ، مصدر سابق ، ص ١٣٥.

60 - هو عامر بن شراحبيل الشعبي (ت١٠٩هـ) ينظر ترجمته في :

أبي البركات الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق ابراهيم السامرائي ، بغداد ،١٩٥٩م، ص ٥٧.

61 - ينظر مواصفات السفير أو المبعوث من هذا البحث .

فسأله الخليفة : يا شعبي ، ما العقل؟.

فأجاب الشعبي : ما يعرفك عواقب رشدك ، ومواقع غيك .

الخليفة : متى يعرف الرجل كمال عقله ؟

الشعبي : إذا كان حافظ للسانه ، مدارياً لأهل زمانه ، مقبلاً على شأنه . وأخذ الخليفة يسأله عن الحكمة والأدب والشعر ، والشعبي يجيب بنباهة واقتدار ، مما حدى بالخليفة عبد الملك أن يقول له في آخر الأمر : إنّكَ لكنيف العلم يا شعبي.

ودلالة على إعجابه به بعثه سفيراً إلى الدولة البيزنطية ، بهدف معرفة رأي الإمبراطور وحكومته في ما أقدم عليه الخليفة عبد الملك بن مروان من سك النقود العربية ، وتعريبها ، وتعريب الدواوين ، وخاصة دواوين الخراج ، لأن تعامل الدولة الأموية قبل هذه المرحلة كان بالدينار الذهبي البيزنطي . وسجلت كتب التاريخ لقاء الشعبي بالإمبراطور البيزنطي الذي أعجب به وبلباقته وثقته بنفسه وفصاحته وقال مخاطباً السفير : أنت أحق بموضع صاحبك [٦٢].

ومن أبرز السفارات العربية الإسلامية في العهد الأموي تلك التي أوفدها القائد العربي العظيم قتيبة بن مسلم الباهلي ،فاتح أواسط آسيا ، الذي وصلت قواته إلى كاشغر ، على حدود الصين وقتئذ، وأستولت عليها الصين فيما بعد (وهي جزء منها الآن) وكان ذلك في عام ٩٦هـ أي في أواخر عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦ هـ) ، كما يرويها ابن الأثير[٦٣] . يقول ابن الأثير:

أن قتيبة بن مسلم بعث جيشاً مع كبير بن فلان – أحد رجاله – إلى كاشغر فغنم وسبى سبياً ، فختم في أعناقهم ، وأوغل حتى بلغ قريب الصين ، فكتب إليه ملك الصين: أن إبعث إليّ رجلاً شريفاً ، يخبرني عنكم وعن دينكم ، فانتخب قتيبة عشرة من رجاله لهم جمال والسن وبأس وعقل وصلاح ، وأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن وخيول حسنة، وقال لهم :

---

62 - ينظر : أبي البركات، نزهة الألباء ، مصدر سابق ، ص ٥٨وما يليها.

63 - ابن الأثير ، أبو الحسن (ت ٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ،١٩٧٨م، ج، ص ١٣٦ : ١٣٧.

إذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت أن لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم واجبي خراجهم..)).

وتمت المفاوضة بين المبعوثين وملك الصين ، وانتهت المفاوضة على أن يبُر ملك الصين بيمين القائد قتيبة بالكيفية التي نصت عليها المصادر التاريخية [٦٤] . ويصف احد الشعراء * هذا الإجراء بقوله :

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم — للصين أن سلكوا طريق المنهج

كسروا الجفون على القذى خوف الردى — حاشى الكريم هبيرة بن مشرج

أدى رسالتك التي استرعيته — فأتاك من حنث اليمين بمخرج [٦٥]

إن نمط التمثيل الدبلوماسي في هذا العصر كان يقتضي عدم إقامة المبعوث في عاصمة الدولة التي يبعث إليها ، وإنما تنتهي إقامته عند انتهاء المهمة المكلف بها، كما كان الخلفاء حريصين على تزويد مبعوثيهم بالوصايا التي تكفل لهم نجاح المهمات التي أوفدوا من اجلها ، والدقة والوضوح ، والتحري في نقل الأخبار ، والسلوك القويم ، والمظهر اللائق ،والتحفظ من كل ما يثير الشك والارتياب لدى الطرف المقابل .

---

64 - المصدر السابق ،ص ١٣٧.

* هو سوادة بن عبد الملك السلولي .

65 - المصدر نفسه ،ص ٣٧١ ؛ فهمي هويدي ، مصدر سابق ، ص ٤٩ ؛ ٥٠ .

الخـــاتمة

إن سيادة السلم والتفاهم بين الشعوب لابد له من قنوات تيسر تحقيقه بعيداً عن الأساليب القسريه أو الحروب ، أسوة بالمعلم الأول للبشرية محمد (ص) الذي بدأ نشاطه السلمي الدبلوماسي قبل أن يبدأ الجهاد أو القتال من اجل نشر مفاهيم الإسلام إلى أمم الأرض ، تمثل ذلك بإرسال الرسل إلى الملوك والأمراء خارج شبه جزيرة العرب ، وسار على منواله الخلفاء الراشدون والأمويون ، ومع مرور الزمن نشأت قيم رسخت ونظمت العلاقات الدولية ، ثم تطورت إلى أعراف دبلوماسية تعنى بدرجة التمثيل الدبلوماسي وأنواع الموفدين ، وكفاءاتهم ، ومراسيم استقبالهم ، وعقود الصلح وكيفية فسخها وأحكامها ، وما سواها من أمور مهمة ما زالت الدول تعمل بموجبها في وقتنا الحاضر . أن التوسع في الدولة العربية الإسلامية بفعل حركة الفتوحات الإسلامية الواسعة التي شهدها عصر الخلفاء الراشدين أدى إلى انضواء أمم وشعوب ذوات نظم وحضارات وأفكار ومعتقدات تحت لوائها وأفضى إلى بلورة الأدب الدبلوماسي العربي في هذه الحقبة ، وفي المرحلة التي تليها وتحديداً في العهدين الأموي في الأندلس والعباسي. وإذا كانت الثقافة التاريخية مهمة للأشخاص الاعتياديين ، فهي في الحقيقة تعد أكثر أهمية لرجال السلك الدبلوماسي الذين ينتظر منهم أن يمثلوا بلدهم بكل ما فيه من أطر فكرية وحضارية ، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال إثراء الثقافة الذاتية بالموروث الحضاري العام . وفي الوقت الذي نعيش فيه نتائج الإنجازات التكنولوجية والحسابات الإلكترونية ((غير الاعتيادية)) هناك قوة خفية تشد الشعوب إلى ماضيها لتجذير أنظمة الحياة وأسسها بحثاً عن الأصالة ، فالأمة التي تكون أنظمة الحياة فيها – ومنها النظام الدبلوماسي – مقطوعة الجذور – تبدو عائمة وسط هذا العالم وليس بوسعها أن تستقر على قرار . وفي الأخير : يحدوني الأمل أن تكون هذه الدراسة المتواضعة قد حققت هدفها في تاصيل النظام الدبلوماسي العربي الإسلامي ، وكشفت بمصادرها الأولية عن عراقة النظام العربي الإسلامي ، مما يعطي دلالة على حيوية الحضارة العربية الإسلامية ومرونتها وقابليتها للتطور على نحو يخدم الإنسانية في كل زمان ومكان .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :-

١. ابن الأثير ، علي بن محمد الجزري (ت٦٣٠هـ) ، الكامل في التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨م؛ اللباب في تهذيب الأنساب ، تحقيق النجار، ١٣٥٧هـ.

٢. ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، الإصابة في تمييز الصحابه ، تحقيق البجاوي، القاهرة ، ١٩٧٧م.

٣. ابن سعد ، محمد بن سعد (ت ٢٤٠ هـ) ، الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت ، ١٩٩٠.

٤. ابن الفراء ، الحسين بن محمد ، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ، ١٩٤٧م.

٥. ابن كثير ، عماد الدين أبى الفداء إسماعيل (ت ٧٤٤هـ) ، البداية والنهاية.

٦. ابن منظور ، محمد بن مكرم بن علي (ت ٧١٠ هـ) ، لسان العرب،بيروت.

٧. ابن هشام ، عبد الملك (ت ٢١٨هـ) ، السيرة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٧١م.

٨. الأنباري ، أبي البركات ، (ت ٥٧٧هـ) ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء،تحقيق إبراهيم السامرائي ، بغداد ، ١٩٥٩م.

٩. البلاذري ، أحمد بن يحي بن جابر(ت٢٧٩هـ) ، فتوح البلدان، بيروت.

١٠. الرازي ، محمد بن أبي بكر (ت ٦٦٠هـ) ، مختار الصحاح ،مكتبة النهضة، بغداد ، ١٩٨٣م.

١١. الشيباني ، محمد بن الحسن ، شرح السيد الكبير ، القاهرة ، د.ت.

١٢. الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ، د.ت.

١٣. المسعودي، أبو الحسن (ت ٣٤٥هـ) التنبيه والإشراف ، بيروت ، ١٩٦٨م؛ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الرياض ، ط٥، ١٩٧٣م.

١٤. المناوي ، عبد الرؤوف ، مختصر شرح الجامع الصحيح ، بيروت .

١٥. النووي ، محي الدين (ت ٧٤٤هـ)، ط٣ ، مكة المكرمة ، ١٣٩٨هـ.

ثانياً: المراجع:-

١. باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج ٢، بغداد، ١٩٥٦م.

٢. البهبهيتي، نجيب محمد، تاريخ الشعر العربي حتى القرن الرابع الهجري،القاهرة،١٩٥٠ .

٣. جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت.

٤. جراندسن وآخرون، كولينز دكشنري، ١٩٧٩م، دار النشر، جلاسجو. ترجمة د. محمود المقطري.

٥. حسن فتح الباب، مقومات السفراء في الإسلام، القاهرة، ١٣٩٠هـ.

٦. حسين الحاج حسن، حضارة العرب في عصر الجاهلية، بيروت، ١٩٨٤م.

٧. حميد الله، محمد الحيدرابادي، الوثائق السياسية في عصر النبوة والخلافة الراشدة، بيروت، لبنان، د.ت.

٨. خطاب، محمود شيت خطاب، السفارات النبوية، بغداد، ١٩٨٩م.

٩. شاكر محمود عبد المنعم، محاضرات في تاريخ الدبلوماسية . معهد التاريخ، بغداد، ١٩٩٨م.

١٠. عبد الرحمن ناجونغ، مختصر تاريخ العرب في العصور الوسطى، بكين، ١٩٨١م.

١١. غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٢. فهمي هويدي، الإسلام في الصين، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٤٣، ١٩٨١م.

١٣. القاسمي، ظافر، الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام . دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٢.

١٤. محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت،١٩٨٥م.

١٥. المقحفي إبراهيم أحمد ، معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٨م.

١٦. هيكل، محمد حسنين، الفاروق عمر ،القاهرة .